

لجأ النازحون إلى العراء، على الحدود السورية التركية، وانتشروا في الجبال الجرداء وبين البساتين، أملاً بالأطولهم نيران القذائف التي بدأت تنهال على المنطقة من شهرين. ولكن البرد الذي يأتي في هذه الفترة من السنة فاقم مصابهم، ولم تستطع خيامهم الهزيلة أن تحميهم من الأمطار أو الثلوج التي تراكمت فوقها، ولا من البرد الذي قتل عدداً منهم. ومن النازحين من افترش العراء، فلم يجد خيمةً تقيه المطر أو البرد أو حتى هجمات الحيوانات البرية، ويصل عدد هؤلاء إلى 80 ألف نازح، بينما لجأ 20 ألفاً إلى الأشجار، لبيبتوا تحتها علها تؤمن لهم بعض الحماية. وقالت لجنة الإنقاذ الدولية، غير الحكومية، إن ستة أطفال ماتوا جرّاء الصقيع في الأيام الأخيرة، بينما وُجدت عائلةً بكاملها ميتةً بسبب البرد القارس الذي يضرب المنطقة.

كتبت إحدى الصحف العالمية أن حجم الأزمة الإنسانية صدم منظمات الإغاثة. ولكن ما صدم لجنة الإنقاذ الدولية أكثر أن هؤلاء النازحين بمجملهم ليس لديهم مكانٌ للنزوح إليه، وحيث امتلأ ما توفر من مدارس وأماكن عبادة، بل وحتى سجون، بأعدادٍ ضخمةٍ تزيد عن طاقتها الاستيعابية، بالنازحين، لم يتبقّ للآخرين سوى "اللامكان" للجوء إليه. وتساءل نائب منسق الشؤون الإنسانية الإقليمي للأزمة السورية التابع للأمم المتحدة، مارك كتس: "إلى أين يتجه هذا العالم، إن لم يكن قادراً على تأمين حماية لثلاثة ملايين بشري يقطنون إدلب ومحاصرين بالحرب؟"، وذلك بعد أن وجّه نداءاتٍ من أجل تحركٍ دولي بشأن الأزمة في سورية، إلا أن نداءاته لم تجد صدقاً لدى أحد. وفي هذه الأجواء، ذكرت صحف غربية أن من الواضح أن العالم، والحكومات الغربية بالتحديد، قرّروا إبلاء المأساة الإنسانية في الشمال السوري الأذن الطرشاء لدوافع أنانية، في إشارةٍ إلى تخوفهم من أزمة لجوء جديدة إلى أوروبا.

وبدا واضحاً، منذ الأيام الأولى للمعركة، أنها ستسفر عن تفاهاتٍ جديدةٍ، وستذهب بتفاهاتٍ قديمةٍ بين اللاعبين الإقليميين حول سورية وحول إدلب تحديداً. كما من الممكن أن تغيّر من خريطة المعارضة العاملة على الأرض؛ إذ يمكن أن يكون أول هذه التغيرات وأغربها، إعلان هيئة تحرير الشام (جبهة النصرة سابقاً)، حل نفسها في ذروة المعارك، فقد تواترت الأنباء عن حل الهيئة زراعها المدني، تمهيداً لحل زراعها العسكري، وستخبر أعضائها بين تسليم أسلحتهم الفردية أو الاحتفاظ بها والانضمام إلى الفصائل المسلحة الأخرى للمقاتلة تحت جناحها. إن صحّ ذلك، ربما تهدف الهيئة من الخطوة سحب ذريعة محاربة الإرهاب، المتمثل بالهيئة، من الجيش النظامي ومن القوات الروسية لتجنّب المدينة معركةً غير محسوبة العواقب. كما أن تجريد الفصائل المعارضة في إدلب من أسلحتها كان بدأً في اتفاق سوتشي، وتعهدت تركيا بتحقيق هذا المطلب في مقابل أن تمتنع قوات النظام والقوات الروسية عن شن هجومٍ على إدلب. وأدى شن الجيش النظامي السوري، مدعوماً بقوات روسية الهجوم على إدلب، إلى تدخل الجيش التركي لحماية المدنيين، وضمن سريان اتفاق سوتشي، لأن تركيا تخاف خرق الاتفاق، وتسبّب المعارك بموجة نزوح، ربما بالملايين، ليست أنقرة في وضعٍ يسمح لها بالتعامل معها التعامل المطلوب.

وفي حين برّرت الحكومة السورية هجومها على إدلب بأن اتفاق سوتشي الخاص بالمدينة لم يُطبق، وخصوصاً منه الشق الذي يتعلق بفتح الطرق الدولية التي تربط حلب بدمشق، بسبب استمرار سيطرة الفصائل العسكرية المعارضة على أقسامٍ منها في ريف المدينة، وتقييد حركة المرور عليها، تقول تركيا إن الهجوم الأخير يعدُّ خرقاً لهذا الاتفاق. ومن هنا برز الخلاف بين روسيا وتركيا، ما استدعى لقاءات عدة بين مسؤولي البلدين، للتوصل إلى تفاهاتٍ بدت صعبة، ومن ثم أدى إلى إجراء

اتصالات هاتفية بين الرئيسين، الروسي بوتين والتركي أردوغان. وقد اشتَمَّت أميركا أن الخلاف بين الطرفين جديٌّ، وهو من الجديَّة بحيث يمكنها التعويل عليه لدفع تركيا إلى التخلي عن التسلح بالأسلحة الروسية، وخصوصاً منها أنظمة "أس 400" للدفاع الجوي.

واضحٌ أن معركة إدلب الجارية لن تكون مثل غيرها من المعارك بين المعارضة المسلحة وقوات النظام والقوات الحليفة لها، من حيث تداعياتها على العلاقة بين المتدخلين في الحرب السورية، خصوصاً روسيا وتركيا، وأميركا وتركيا، وربما ستتسم العلاقة بينهم في المستقبل من الأيام بسماتٍ تختلف عما قبلها. وواضحٌ أيضاً أن الغرب قرَّر أن يُغمض عينيه عن المأساة التي يعيشها المدنيون السوريون الذين نزحوا إلى المجهول. وهو بذلك لا يكون قد قرَّر النأي بنفسه عن هذا الصراع، اتقاءً لتبعاته عليه، بل يكون قد قرَّر أن ينأى عما يدَّعيه من مناصره حقوق الإنسان أينما كان.

المصادر:

العربي الجديد